

يا ليل الصبّ ومعارضاتها ظاهرة فريدة في الشعر العربي الحديث

*عمر الأسعد

** عبدالرؤوف زهدي مصطفى

Abstract

This study investigates a unique Modern Arabic Phenomenon: a poem which was opposed by many Poets in the Old and Modern Eras.

Poets competed in proficiency and creativity, which consequented in having a full "Diwan" of these poems.

The majority of these Poems dealt with the flirting part "introduction" of Al Hosry Al Qairawani, and neither one of the Poems dealt with the main two topic of the Poem, namely: apology and pride.

And despite the fact that Polemic Poems re-exposed the flirting head meanings, they were innovative in terms of presentation, dealing with the subject and the metaphoric use which poets have exposed in artistic ways.

Still, the poems of Abul – Qasem Al Shabbi, and Ahmad Shawki remain the best of Polemic Poems, they even excelled over the original Poem in some aspects as ideas, form, art and mechanism.

مدخل

المعارضة لغة: المقابلة، مأخوذة من: عارضت كتابي بكتابه أي قابلته. ويقال: فلان يعارضني: أي يباريني، وعارضته في المسير: أي سرت حiale وسأيرته، وعارضته بمنزل ما صنع: أي أتيت إليه بمنزل ما أتى. ومنه المعارضة وهي المباراة، ومعارض الكلام ومعارضه: كلام يشبه بعضه بعضاً⁽¹⁾.

والمعارضة في معناها الاصطلاحي أن يقوم شاعر بنظم قصيدة يترسم فيها خطأ قصيدة سابقة، ملتزماً ببحرها وقافيتها التزاماً تاماً، وبموضوعها وأغراضها الشعرية التزاماً جزئياً.

وعلى ذلك فالشاعر الذي يعارض قصيدة سابقة لشاعر آخر، إنما يفعل ذلك لإعجابه بتلك القصيدة: موضوعها ووزنها وإيقاعها وقافيتها، فهو حين يختار القصيدة يختار هذه العناصر اختياريًا، ولكنه يتقيد بها بعد أن يتم الاختيار وتقع المعارضة، على عكس النقائض التي تُفرض فيها على الشاعر المناقض تلك العناصر فرضاً فلا خيار له في ذلك، وكان الشاعر الأول يلزم الثاني بها.

* عميد كلية حطين عمان – الأردن

** الأستاذ عميد كلية الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط، عمان - الأردن

والمعارضة فن من فنون الشعر العربي، قديمٌ قَدَمُهُ، استمر عبر العصور الأدبية وانتهى إلى عصرنا الحاضر، حيث كثرت معارضة الشعراء القدماء بعضهم لبعض، ومعارضة المحدثين للقدماء، وقلَّتْ محاضرة المحدثين للمحدثين، فما أن يلمع نجم قصيدة من القصائد حتى يتسابق الشعراء إلى معارضتها، ويتبارون في ذلك، مجتهدين في إيراد أحسن ما عندهم من أدوات الفن الشعري حتى تكون القصيدة المعارضة في مستوى القصيدة الأصلية أو أحسن منها.

وقد يفهم من درج الكلام أن الشاعر المعارض يكون في عصر الشاعر الذي يعارضه، أو يفصله عنه سنوات تقلّ حيناً وتكثر حيناً.

(2)

تعد قصيدة يا ليل الصب للحصري القيرواني مثلاً صالحاً تنطبق عليه قواعد المعارضة الشعرية، ويلفت النظر في هذه القصيدة كثرة ما عورضت به من القصائد ومَن عارضها من الشعراء. وهذه الظاهرة نادرة الحدوث في فن المعارضات الشعرية، ولعل أبرز قصيدتين من قصائد الشعر القديم كثرت معارضتهما:

1. بردة البوصيري في مدح النبي ٢، التي شكلت وجمهرة الأشعار التي عورضت بها، ما أطلق عليه في تاريخ الأدب قصائد المديح النبوي أو البديعيات، وهو ضرب من النظم يلتزم فيه الشاعر الوزن والقافية، وأن يضمن كل بيت من أبيات قصيدته نوعاً أو أكثر من أنواع البديع.

وقد أجمع عدد من الباحثين على أنها أفضل قصيدة في المديح النبوي، إذا استثنينا البردة الأم (كعب بن زهير)؛ بل إنها تفوقت على البردة الأم نفسها حين غدت النموذج والمثال المحتذى في قصائد المديح النبوي "فمكّنت صاحبها من ناصية المجد الأدبي، ورفعته إلى منزلة الخلود"⁽²⁾، وجعلته يعرف ببردته ولا تعرف بردته به.

وهذه القصيدة هي الأكثر شيوعاً في الشعر العربي، عرف ذلك الباحثون العرب وغير العرب؛ فقد كتب (رينيه باسيه) أحد مترجمي القصيدة وكتابت مادتها في دائرة المعارف الإسلامية: "لم تبلغ قصيدة عربية أخرى مبلغها من الشهرة".

يا ليل الصبِّ ومعارضاتها ظاهرة فريدة في الشعر العربي الحديث

وتأسيساً على هذه الشهرة تزامم الشعراء منذ بداية القرن الثامن الهجري، على تقليدها ومعارضتها، وأكثروا من تشطيرها وتخميسها وتسبيحها. وقد أحصي من هؤلاء أكثر من أربع مئة وعشرين شاعراً، ويقف على رأسهم في العصر الحديث:

(أ) رائد مدرسة الإحياء محمود سامي البارودي في معارضته المعروفة بـ "كشف الغمة في مدح سيد الأمة"، ومطلعها:

واحدُ الغمام إلى حيِّ بذِّي سلِّم يا رائد البرق يَمِّم دارة العَلَم

(ب) أحمد شوقي في معارضته الشهيرة: نهج البردة⁽³⁾، ومطلعها:

أحلَّ سَفْكَ دمي في الأشهر الحُرْم ريمٌ على القاع بين البان والعَلَم

أمَّا القصيدة الثانية فهي قصيدة للحصري القيرواني ومطلعها:

أقيامُ الساعة موعدهُ يا ليلُ الصبِّ متى غَدَّه

ولما كانت قصائد المدح النبوي - ومنها قصيدة البردة - محل دراسات كثيرة⁽⁴⁾،

رأينا تخصيص هذا البحث لتوضيح هذه الظاهرة المشتركة مع المدائح النبوية، وإبراز قصيدة الحصري القيرواني ومعارضاتها. الشاعر والقصيدة:

(1)

نشر محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى كتاباً فريداً في بابهِ في مكتبة الشعر العربي عنوانه "يا ليل الصبِّ ومعارضاتها"⁽⁵⁾، ضم قصيدة الحصري القيرواني وعشرات من القصائد التي عارضتها، بلغت عدتها ثلاثاً وتسعين قصيدة. وأصحاب هذه القصائد أكثرهم شعراء مُحدَثون معروفون كالشابي، وشوقي، والأخطل الصغير، والزهاوي، والزركلي، وفوزي المعلوف، وبيرم التونسي، وشعراء أقل شهرة مثل عاتكة الخزرجي، ومسعود سماحة، وولي الدين يكن، وآخرون مغمورون في ميدان الشعر مثل حكمة البدري، وزينب عبد السلام، والطاهر القصار، ومرضى الوهاب.

وقد قمنا ابتداءً بعرض قصائد ديوان المعارضات فذكرنا مطالعها وأصحابها من طريق دراسة إحصائية، استنتجنا منها طائفة من المعلومات المفيدة، تعطي القارئ صورة واضحة عن الديوان وشعرائه.

ثم اخترنا من شعراء الصنفين الأولين (المشهورين والأقل شهرة) طائفة صالحة من قصائدهم، تتصدرها قصيدتا الشابي وشوقي، أشهر شعراء المعارضة. وعرضناها على القصيدة الأم ودرسناها دراسة تحليلية مقارنة؛ لنتبين من ذلك كله موضع كل قصيدة من القصائد الأخرى، وموضعها من القصيدة الأصلية.

مَنْ علي الحُصْرِي القُيْرَوَانِي؟ وما قصيدته؟ ولمَ لاقت هذا الرواج في سوق الشعر العربي؟

(2)

اثنان في عالم الأدب يحملان لقب الحصري القيرواني: أبو إسحاق إبراهيم بن علي (453هـ) صاحب كتاب "زهر الآداب وثمر الألباب"، وابن خالته أبو الحسن علي بن عبد الغني (420-488هـ) صاحب قصيدة يا ليل الصب، الفهري القيرواني الضرير الحُصْرِي، نسبة إلى صناعة الحصر. نكب في طفولته بفقد أمه وفقد بصره، ثم بفقد أبيه في مطلع شبابه.

عاش في القيروان واشتغل بالتدريس ونظم الشعر، ثم انتقل إلى سبنة، ولمع نجمه في عالم الشعر، فاستدعاه المعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فلم يشأ الحصري أن يجوز إلى الأندلس خوفاً من ركوب البحر، ثم عاد فانتقل إليها سنة 462هـ، واتصل ببلاط المعتمد ولكن سرعان ما غادره لسبب لا نعرفه، وجعل يطوّف ببلاطات ملوك الطوائف؛ فمدح أمير دانية ابن مجاهد العامري، وأمير سرقسطة المقتدر بن هود، وأمير مرسية محمد بن طاهر، وأمير المرية المعتمد بن صمادح، ثم انتقل إلى مالقة مادحاً قاضيها أبا المطرف الشعبي وأبا مروان بن حسّون.

واضطربت أحوال الأندلس اضطراباً شديداً، وجعل المرابطون بزعامة أميرهم يوسف بن تاشفين يستولون على دويلات ملوك الطوائف، فعاد الحصري إلى طنجة سنة 483هـ، ومكث فيها حتى وفاته⁽⁶⁾.

والحصري أديب مترسّل وشاعر⁽⁷⁾، استمد شهرته من شعره، وهو سهل الشعر سريع النظم، وتراكيبه اللغوية تسهل أحياناً وتضعف أحياناً.

(3)

أما قصيدته التي طار صيتها، وجرت على الألسنة مطالعها الغزلية، فقد مدح بها الحصري الأمير أبا عبد الرحمن محمد بن طاهر صاحب مرسية⁽⁸⁾. واشتملت على تسعة وتسعين بيتاً⁽⁹⁾، الثلاثة والعشرون الأولى في الغزل، والخمسون التالية في المديح، وبقيتها في الاعتذار والافتخار بشعره.

وإذ انصبَّت المعارضات على مطالع القصيدة الغزلية، فنحن ذاكرون هذه المطالع ليكون في ذلك عون على التحليل والمقارنة.

أقيامُ الساعة موعده	يا ليلُ الصبِّ متى غده
أسفٌ للبين يُردده	رقد السُّمَّار فأرقه
وظروف الدهر تبعده	يهوى المشتاق لقاءكم
لولا الأيام تُنكده	ما أحلى الوصل وأعذبه

والظاهر أن سبب نظمها وشاية بلغت الأمير، تتهم الحصري بشتمه إياه في مجالسه، وكان الحصري وقتذاك منتصباً للتدريس في أحد مساجد مرسية، فرفع إليه القصيدة مفنداً هذه التهمة، وراذلاً هذه الوشاية، وقد نص الشاعر في قصيدته صراحة على هذه التهمة:

وظمى ⁽¹⁰⁾ من بحرك مُزبده	أتراك غضبتَ لما زعموا
وعلا من صوتك مُرعه	وبدا من سيفك هُبرقه

وردّها مبرئاً نفسه منها:

لُدبَ الواشي، تبتَّ يده	مالي ذنبٌ فتعاقبتني
وكفرتُ برَبِّ أعْبده	إن كنتُ سببتُكُ فُضَّ فمي
من نمَّ كريمٍ أحمده	حاشا أدبي وسناح سبي

وأتبع ذلك بشيء من الاعتداد بشعره ورفع ذكره:

لفظاً كالدرِّ منضده	وأقبل غيداء محبِّرة
في الحي لذابت خردّه	لو أن جملاً ⁽¹¹⁾ أنشدّها

وهو إذ يعلي من شأن شعره يبرز قدرته على النظم على هذا الوزن النادر الذي أقام عليه قصيدته، ويهديه إلى من يستحقه ويميز حسنه من رديئه:

والشعر قليلٌ جيّدٌ
ما أجود شعري في خبب⁽¹²⁾
في سوق الصرف وعسجد⁽¹³⁾
لولاك تساوى بهرجه
أو ينفقه من ينفقه⁽¹⁴⁾
ولضاع الشعر لذي أدب

يدور الغزل حول المعاني التقليدية: الصباية وما تسببه من الأرق والقلق، والعيون وما تنصبه من شرّك، والهوى وما يودي به من رمق، والشوق وما يفعله بالدموع من شرّق!

وينتقل إلى المديح انتقالاً لطيفاً غير مباشر، ويخلص إليه خلوصاً غير مُحسّ؛ فكما هو للحب أعفُ ذويه، فكذلك الممدوح هو للدهر أعفُ بنيه:

غيري بالباطل يفسده
الحب أعفُ ذويه أنا
عبد الرحمن محمده
كالدهر أجلُّ بنيه أبو

والمديح في القصيدة تقليدي، مدح فيه الأمير بأصالته ونسبه وكرمه وعطائه وحصافته وذكائه وأدبه وعلمه واستقامته وخلقه، وأنه مقصد السفار ومحطّ الآمال.

وهو في بعض ذلك لا يعدو أن يكون قوله كلاماً عاماً لا يمت إلى الممدوح بصلةٍ خصوصيةٍ - فهو ينطبق على كل ممدوح - ولا يحمل أية صورة شعرية مميزة، فهو بالنتيجة أشبه، انظره مثلاً بصور سطوته وشجاعته:

منصورُ الملك مؤيِّده
ميمونُ العمر مباركه
لكن في الحرب تشدده
هينٌ لينٌ في عزته
ويقيمُ الدهرَ ويقعده
يطوي الأيامَ وينشرها

وتخلل المديح كثير من المبالغات الشعرية، وهي مبالغات تحمل على محمل التصديق والقبول ولو أنها في الحقيقة بعيدة عنه، ذلك كقوله:

كفّيك لأورق جلمده
لو أن الصخر سقاه ندى
لابيض بكفك أسوده
والركن لو أنك لامسه

وخالصة القول في قصيدة الحصري القيرواني أنها قصيدة اعتذارية، انتظم فيها القول في حلقات كوّنت الحلقة الضيقة منها نواة القصيدة: وهي اتهام الشاعر والوشاية به بالإساءة إلى صاحب مرسية. ثم اتسعت الحلقة لتشمل رد الاتهام متمثلاً في إبطال الوشاية والدفاع عن النفس، وقد عزّز القول في هذه الحلقة شيئان اثنان: تذكيرٌ بمآثر الأمير وصفاته التي تستوعب كل هفوة أو وشاية، وتعداداً لقدرات الشاعر الذي يتصف بصفات ومميزات تتأى به عن الوقوع في الخطأ والإساءة. فهذان الضربان من القول هما عدته في نفي التهمة ودفعها عن نفسه، وهو سياج يحوط به الفكرة الأساسية ليدعمها ويقويها.

أما الحلقة الواسعة التي أحاطت بذلك كله فهو ما مهّد به لقبول الفكرة وتمثلها، من كلام رقيق في الغزل، مقبول في النفس ما يلبث أن يجد في القلوب مستقراً وفي النفس مستودعاً، فهو وسيلته للوصول إلى الفكرة الأساسية وتقبّلها بقبول حسن. معارضات الديوان

في ديوان المعارضات جملة من المعلومات المتعلقة بقصائد المعارضة وأصحابها، يعكسها هذا التّبت وما يتفرع عنه من إحصاءات، وما يتبعه من استقراءات. وكلها يعين في تكوين صورة واضحة عن الديوان ومضامينه.

جدول (1)

مطالع المعارضات، وأسماء أصحابها،

وعدد أبيات كل منها حسب ورودها في ديوان المعارضات

30 بيتاً	أبو القاسم الشابي	1- غنّاه الأمس وأطربه
13 بيتاً	أبو الهدى الصيّادي الرفاعي	2- روضٌ قد لألأ عسجده
12 بيتاً	أحمد حسن الرحيم	3- شعبٌ بالحقّ علّت يده
77 بيتاً	أحمد خيرى	4- الدهر صفا لك أحمده
28 بيتاً	أحمد شوقي	5- مضناك جفاه مرقدّه
15 بيتاً	أحمد عبد الستار الجوارى	6- الليل تطاول أسودّه
14 بيتاً	أحمد عبّيد	7- الغصن بقّدك أمْلده
3 أبيات	أحمد بن محمد بن قرصة الأنصاري	8- كم سيف النظم أجرده
5 أبيات	إسماعيل الزبيدي اليماني	9- في المهجة أضحى معهدّه
14 بيتاً	إسماعيل صبري	10- أقریبٌ من دَنفٍ غدّه

11- الشعر لحُسْنِكْ أَنْشِدْهُ	أمجد السامرائي	36 بيتاً
12- يا فَرْدَ الحسَنِ وَأَوْحَدَه	أمينة عباس	12 بيتاً
13- صَبُّ يَزْدَاد تَنْهَهُهُ	أنور خليل	32 بيتاً
14- اللّيل تَسْمَرُ أَسْوَدَه	أنور شأوول	15 بيتاً
15- منظوم الخَدِّ مُورِّدَه	ابن الأَبَار البننسي	6 أبيات
16- لحظْ يَسِيكْ مَقْلَدَه	ابن ملك الحموي	31 بيتاً
17- النجم بَثْغَرِكْ أَرْصُدَه	بشارة الخوري (الأخطل الصغير)	14 بيتاً
18- يَوْمٌ سَنظَلُّ نَرْدَدَه	البشير العربيي	9 أبيات
19- ببديع الشعر أَرْدَدَه	تركي كاظم جودة	17 بيتاً
20- ما بال الحَبِّ يُشْرِدَه	جعفر ماجد	11 بيتاً
21- أمتاع اللّيل دنا غَدَه	جميل أحمد الكاظمي	126 بيتاً
22- لي عندك حَقٌّ أَنْشُدَه	جميل صدقي الزهاوي	77 بيتاً
23- اللّيل قَضَى إِلا شِبْحاً	حسين زيد الكيلاني	30 بيتاً
24- "يا ليل الصب متى غده"	حسين الظريفي	23 بيتاً
25- الخمرُ وَخَلُّ يَسْقِينِي	حكمة البدري	19 بيتاً
26- قَسَمٌ يا قَدْسُ أَرْدَدَه	خالد عبد الهادي الغواص	20 بيتاً
27- عَهْدٌ وَلَى وَسَأَحْمُدَه	خضر الطنتائي	13 بيتاً
28- حَسَناءُ جَمالِكْ أَعْبَدَه	خضر عباس الصالحي	47 بيتاً
29- بَفُؤادِي جَرِحُ تَعَهْدَه	خير الدين الزركلي	19 بيتاً
30- أَيْزِين الخَدِّ تَوَرِّدَه	راشد راشد	19 بيتاً
31- اللّيل وَمِثْلِي يُسْنِدَه	رشيد أيوب	12 بيتاً
32- الحزن بقلبي معهده	زينب عبد السلام	29 بيتاً
33- هل أنت بطولك مُسْعِدَه	ناصر الدين الأرجاني	16 بيتاً(5)
34- السَّعْرُ تَعَكَّرَ مَوَرِّدَه	نخلة أسعد الطلو	32 بيتاً
35- مَضناك عِصاه تَجَلْدَه	نسيب أرسلان	15 بيتاً
36- ليلي بصدودك أَسْهَدَه	نعمان ماهر الكنعاني	19 بيتاً
37- ممشوق قوامك أَعْبُدَه	سليمان هادي الطعمة	26 بيتاً
38- أَجْمَلُ بالسهم تُسَدِّدَه	الشاذلي طاقة	9 أبيات
39- صَبُّ بالهجر تُهَدِّدَه	شمس الدين الحصري الدمشقي	17 بيتاً
40- يَسِيكْ الحُسْنُ تَوَفُّدَه	الصادق العلوييني	15 بيتاً
41- رَيْبُ الأَيامِ سَطَّتْ يَدَه	الطاهر القصار	18 بيتاً

- 25 بيتاً الطاهر القصار
 42- مختارُ الله محمدهُ
 17 بيتاً عاتكة الخزرجي
 43- يفتى المشتاق وتُجدهُ
 31 بيتاً عبد الحميد الرافي
 44- سلطانُ الحُسنِ وسؤددهُ
 62 بيتاً عبد الحميد فرج البديري
 45- الله اللهُ أردهُ
 53 بيتاً عبد الرحمن البناء
 23 بيتاً عبد الرزاق بستانة
 46- الشوقُ ازداد توفدهُ
 13 بيتاً عبد الرزاق محيي الدين
 47- ليلُ الهيمان دنا غدهُ
 13 بيتاً عبد الستار علي البياتي
 48- بالليل وما تطوي يدهُ
 19 بيتاً عبد العظيم الربيعي
 49- شعرٌ في الحب أردهُ
 51- يهواه القلب ويعبدهُ
 14 بيتاً عبد الله الجبوري
 50- بدريُ الخدِّ موردهُ
 15 بيتاً عدنان غازي الغزالي
 51- يهواه القلب ويعبدهُ
 14 بيتاً الشيخ علي عقل
 52- يا ليلُ حبيبي أعبدهُ
 19 بيتاً علي محمد الحائري
 53- "يا ليل الصبِّ متى غده"
 21 بيتاً علي النيفر
 54- مضى وخيالك يُسهدهُ
 46 بيتاً عيسى اسكندر المعلوف
 55- الجفن هواك يُسهدهُ
 14 بيتاً فخري ناجي الحارس
 56- "يا ليل الصبِّ متى غده"
 20 بيتاً فؤاد بليبل
 57- "يا ليل الصبِّ متى غده"
 18 بيتاً فوزي المعلوف
 58- الحُسنُ جمالك سيدهُ
 30 بيتاً قيصر المعلوف
 59- هل سيلٌ يهدرُ جارفهُ
 23 بيتاً كاظم محمد الطباطبائي
 60- هل كوكبُ حُسنِ نرصدُه
 32 بيتاً كمال الجبوري
 61- الأكل عيني تُحسدهُ
 20 بيتاً كمال عثمان
 62- الحبُّ تسامي مَقصدهُ
 22 بيتاً كمال نصرت
 63- هيمانُ بقربك تُسعهُ
 23 بيتاً لقمان (اسم مستعار لشاعر عراقي)
 64- الشَّعرُ بحبك أنشدُه
 37 بيتاً مجيد عبد الحميد ناجي
 65- يا ليلُ نجيبك يُجهدهُ
 12 بيتاً محمد أسعد ولاية
 66- اليوم نشيدي أنشدُه
 12 بيتاً محمد حمزة الملا
 67- "يا ليل الصبِّ متى غده"
 39 بيتاً محمد خليل
 68- الحبُّ عظيمٌ مَقصدهُ
 44 بيتاً محمد الشيخ علي البازي
 69- أنا أهوى الشَّعرُ فأنشدُه
 30 بيتاً محمد صالح المنفلوطي
 70- "يا ليل الصبِّ متى غده"
 14 بيتاً محمد طاهر توفيق
 71- الصبحُ جبينك موردهُ
 72- قلبي يُدنيك قنْبِعهُ

73- الشعر هَلَمْ تُرَدِّدَهُ	محمد علي حسن	22 بيتاً
74- وطني والحقُّ يُؤَيِّدُهُ	محمد مهدي البصير	16 بيتاً
75- وطني والحقُّ سَيُنْجِدُهُ	محمد مهدي البصير	6 أبيات
76- اليومُ الأَسْعَدُ مولدُهُ	محمود بيرم التونسي	22 بيتاً
77- العيشُ تَوَلَّى أَرْغَدَهُ	محمود رمزي نظيم	5 أبيات
78- الجفن كَوَاهُ تَسْهَدُهُ	محمود عزت المفتي	25 بيتاً
79- أهوى رَشَاءً لولاه أما	محمود الناظر	3 أبيات
80- ليلٌ بالسُّهْدِ أَكَابِدُهُ	محيي الدين خريف	25 بيتاً
81- أُنْضَى مُضْنَاكَ تَسْهَدُهُ	مرتضى الوهاب	16 بيتاً
82- مولاي رَقَدْتَ وما رَقَدْتُ	مسعود سماحة	14 بيتاً
83- ما ليلُ الصبِّ وما غَدُهُ	مسهد (اسم مستعار لشاعر عراقي)	27 بيتاً
84- العهد هَلَمْ نَجِدَّهُ	مصطفى خريف	57 بيتاً
85- طرفٌ ما اسْتَلَّ مَهْدُهُ	مهدي الأعرجي	22 بيتاً
86- وطني بالسيفِ أُشِيدُهُ	مهدي الأعرجي	6 أبيات
87- أَحْدِيثَ الحَبِّ تُرَدِّدُهُ	مير بصري	20 بيتاً
88- قد مَلَّ مريضك عَوْدُهُ	نجم الدين القمرأوي	6 أبيات
89- المجدُّ بيومك مولدُهُ	وليد الأعظمي	67 بيتاً
90- الحُسْنُ مَكَانُكَ مَعْبَدُهُ	ولي الدين يكن	14 بيتاً
91- حَبُّ أَيْدِيهِ وَأَكْتُمُهُ	مجهول	12 بيتاً
92- صَبٌّ يُضْنِي مَنْ يُنْجِدُهُ	مجهول	14 بيتاً
93- ما أَلْهَبَ خَدَّكَ نَارُ صِيَا	مجهول	23 بيتاً

جدول (2)

عدد أبيات القصيدة	عدد القصائد	النسبة المئوية
10-3	10	10.75
20-11	44	47.31
30-21	21	22.58
40-31	8	8.60
50-41	3	3.22
60-51	2	2.15
عدد أبيات القصيدة	عدد القصائد	النسبة المئوية
70-61	2	2.15

يا ليل الصبّ ومعارضاتها ظاهرة فريدة في الشعر العربي الحديث

80-71	2	2.15
90-81	-	-
100-91	-	-
110-101	-	-
120-111	-	-
126-121	1	1.07
المجموع	93	%99.98

جدول (3)

المعارضات حسب الزمان

عدد المعارضات	النسبة المئوية
المعارضات القديمة	5.37
المعارضات الحديثة	84.94
معارضات مجهولة	9.67
المجموع	%99.98

جدول (4)

المعارضات الحديثة حسب المكان

الجنسية	العدد	النسبة المئوية
عراقي	46	58.22
مصري	10	12.65
تونسي	9	11.39
لبناني مهجري	6	7.59
لبناني	3	3.79
دمشقي	2	2.53
سوداني	1	1.26
فلسطيني	1	1.26
أردني	1	1.26
المجموع	79	%99.95

وهذه ملاحظات طائفة على الثبوت الأصلي وما يتبعه من إحصاءات.

يمكن تصنيف شعراء المعارضة أربعة أصناف: شعراء مشهورين، وشعراء أقل شهرة، وشعراء مغمورين، وآخرين مجهولين. ويندرج في الصنف الأخير ثلاث قصائد لشعراء لم تذكر في الديوان أسماؤهم.

يلفت النظر أن أكثر المعارضات لشعراء محدثين، وأقلها لشعراء قدماء (79 قصيدة من 93).

ويلاحظ أن شعراء المعارضة العراقيين تصدروا القائمة، فتجاوزت نسبتهم نصف عدد الشعراء (58.22%) في حين لم تزد نسبة المصريين، ونسبة المغاربة الذين ينتمي الحصري القيرواني إليهم، لم تزد عن العُشر إلا قليلاً (12.65، 11.39% على التوالي).

ويلفت النظر أن القصيدة الأم استهوت عدداً من شعراء المهجر ولفتت أنظارهم، فتطلعوا نحوها بترتيب عددي تبع هؤلاء مباشرة (7.59%).

ويلاحظ اتساع البون بين العراقيين ومن جاء بعدهم، وهذا الاتساع صاغ الخط البياني الذي يمثل شعراء المعارضة صياغة خاصة (انظر الجدول 4).

رسم بياني يوضح توزيع المعارضات حسب المكان

- بلغ عدد قصائد المعارضة ثلاثاً وتسعين قصيدة، مجموع أبياتها 2192 بيتاً. وتفاوتت القصائد طولاً وقصراً تفاوتاً كبيراً؛ فإذ بلغ أطولها 126 بيتاً (16)، متجاوزةً أبيات القصيدة الأصلية، جاء أقصرها في ثلاثة أبيات (17). وهو كما نرى أمر لا تتناسب فيه ولا اتساق.

وتوضّع أكثر القصائد بين ما عدته أحد عشر بيتاً وعشرين، واقترب مجموعها من نصف عدد القصائد. وتلاه مباشرة القصائد الواقعة بين واحد وعشرين بيتاً وثلاثين، وكانت نسبتها أقل من الربع بقليل. ثم المقطعات المنظومة بين ثلاثة أبيات وعشرة. وخلا الجدول من قصائد تقع بين سبعة وثمانين بيتاً ومئة وخمسة وعشرين. والرسم البياني يوضح هذا التوضع (انظر الجدول 2).

رسم بياني يوضِّح طول المعارضات وقصرها

- استعار ثلاثة شعراء مطلع القصيدة الأم وبنوا عليه قصائدهم⁽¹⁸⁾، وقام اثنان منهم بتشطير مقدمتها الغزلية⁽¹⁹⁾، وعمد ثالث إلى تخميس أربعة الأبيات الأولى منها⁽²⁰⁾. أما سائر القصائد فهي معارضات بالمفهوم الاصطلاحي لها.

- ثلاثة من شعراء المعارضة نظم كل منهم قصيدتين اثنتين⁽²¹⁾. وبفحص هذه المعارضات - من حيث طولها وقصرها - نتبين بوضوح أن تكرار المعارضة لم يكن إلا "نزوة شاعر" لأن إحدى قصيدتي المعارضة لاثنتين منهم كانت من أقل المعارضات أبياتاً⁽²²⁾.

واستطرداً فإن بعض المقطعات القليلة الأبيات لا طائل تحتها ولا معنى لها، فما قولك بقول القائل⁽²³⁾:

ما أَظْمَمَهَا تَبَّتْ يَدُهُ تَبَّتْ يَدُهُ مَا أَظْمَمَهَا
أليست تلتقي مع قول القائل:

قومٌ جلوسٌ حولهم ماء؟! كأننا والماء من حولنا
وانظر أيضاً إلى قول القائل⁽²⁴⁾:

والشعر سباني أسودُه فالوجه سباني أبيضُه

هل يزيد عن كونه رصفاً للألفاظ خالياً من الصورة والشعور؟

- طائفة صالحة من القصائد (28 قصيدة) خرجت على موضوع المعارضة وهو الغزل، واتخذت لها سنناً آخر:

فبعضها سلك مسلك التأملات والمناجاة⁽²⁵⁾، وبعضها الآخر تحدث عن مولد النبي ٢ وتغنّى بصفاته وقلَّب صفحات من سيرة حياته⁽²⁶⁾، وبعضها جعل موضوعه فضائل النظم وقيمة الشعر⁽²⁷⁾، وبعضها رفع شعار محبة الأوطان والتغني بها وتخليصها من المحتل الفرنسي واليهودي⁽²⁸⁾. وكما حنَّ أحد الشعراء إلى الماضي تطلَّع آخر إلى بناء المستقبل⁽²⁹⁾. وبقيت موضوعات متناثرة تفرَّد بها الشعراء: فشاعر يشيد بيوم المعلم، وآخر يصف الوحل في ليلة ماطرة! وشاعرة ترثي أبا جدها الشاعر إسماعيل صبري!⁽³⁰⁾.

- لنظم القصيدة الأم ومعارضاتها على المتدارك دلالة خاصة في الشعر العربي؛ فهذا البحر ينذر أن تنظم عليه القصائد الطوال، والأبيات المنظومة على وزنه

قليلة في الشعر العربي لا تعدو كونها أبياتاً مفردات منثورة في الدواوين وكتب الأدب.

ولو عرفنا أن مجموع أبيات قصائد الديوان بلغ (2192) بيتاً، أدركنا أن هذا الديوان أضاف رصيلاً مهماً لما نظم في الشعر العربي على هذا الوزن، ولولاه لما عثرنا على أبيات على المتدارك إلا نادراً. طائفة من المعارضات

لمع في سماء قصيدة الحصري القيرواني أسماء معروفة، عارض أصحابها القصيدة، وأجمعوا على قصر معارضاتهم على مقدمتها الغزلية على وجه التحديد، لكنهم اختلفوا في موضوع القصيدة فلم يوافق واحد منهم هذا الموضوع.

وقد اخترنا من هؤلاء الشعراء طائفة منهم حاولنا معرفة ما يدور بأخلاقهم، موافقاً ما جاء في قصيدة الحصري القيرواني أو مخالفاً له.

ونقول ابتداءً إن كثيراً من الأفكار والخواطر التي انتظمت أشعار المعارضين أفكار تقليدية وخواطر مكرورة، ليس فيها جديد في الإيراد، ولكن جديدها في إخراج الفكرة وتغشيتها بغشاء من سحر البيان وعمق التأثير.

وهي في مجملها لا تعدو وصف أحوال المحبين النفسية من إعراض المحبوب ولوعة الفراق وتمني الوصال، وتطاول الليل ووشاية الدمع، وأحوالهم الجسمية من الهزال والجوى وهجران النوم، وأوصاف المحبوب الحسية من سحر العيون، وجمال القدود، وبرودة الثغر، وعذوبة المبسم، وسواد الشعر وبياض الوجه.

أبو القاسم الشابي(31):

عارض الشابي قصيدة الحصري القيرواني بوحدة مطلعها(32):

وشجاه اليوم فما غده؟ غناه الأمس وأظربه

وهي قصيدة فلسفية تأملية من القصائد القليلة التي خالف فيها الشابي عن موضوع القصيدة الرئيسي ومقدمتها الغزلية. وقد أبرز فيها الشاعر لوايح نفسه ونظرته إلى الكون والحياة، وما يثير شاعريته فيهما. وهي في الحقيقة ترنيمة حب، وتهوية شوق، ومناجاة صوفية، تجعل من المحبوب محور حياة المحب، لا يرى من الحياة إلا صورتها

يا ليل الصبِّ ومعارضاتها ظاهرة فريدة في الشعر العربي الحديث

المشرقة، فيتراءى له أنه ملك ناصية الكون، وأن كلَّ ما هو جميل فيه، إنما وجد ليناجيه ويداعبه ويدغدغ أحلامه وآماله:

ن مصادره وموارده
أفراح الحب وتثُّدّه
لولاه لما عَدْبَتْ في الكو
يمشي في الغاب فتتَّبِعُهُ

ولكن سرعان ما تتهار تلكم الأمنيات وتتبخر الآمال أمام حقائق الحياة القاسية:

قلباً في الناس لِتَكْمِدَهُ
كالشهد ليسلبها غده
يا للأيام فكم سرَّتْ
يعطيك اليوم حلاوتها

وبالجملة فنظرته نظرة سوداوية تُلْفُ القصيدة، ويصل في آخرها إلى ذروة

التشاؤم، شأنه في شعره جميعه:

ن يضيء الأفق تورُّده
لُ فَعَنْ في العالم يُسَعِّده؟
بالأمس له شَقَقُ في الكو
واليومَ لقد غَشَّاه اللَّيْبُ

وهو في الخاتمة يكرر بيت المطلع.

أحمد شوقي (33):

قصيدته مطلعها (34):

وبكاه ورحمَ عُوْدَهُ
هُضْنَاكَ جفاه مرَّقْدَهُ

وأبياتها تدور حول الحب، ولوعة الفراق، وعذاب المحب، وتمنّي قرب الحبيب، والشكوى من العاذلين ومكائدهم في الإيقاع بين العاشقين؛ وترقى بالمحسوب إلى درجة العبادة.

باب السلوان وأوصده
فأقول: وأوشِكُ
ما بال العاذل يفتح لي
ويقول: تكاد تُجَنُّ به
أعبده

وتبرز روح المعارضة في تناول شوقي بعض الأفكار الجزئية للقصيدة الأم

والنسج على منوالها، يقول الحصري:

وعلى خديه تَوَرُّدَهُ
فعلام عيونك تجده؟
يا من جحدت عيناه دمي
خذاك قد اعترفا بدمي

ويقول شوقي:

أَكَذَكَ خَدُّكَ جَحَدْتُ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي
يَجْجِدُهُ

وامتازت القصيدة بما استعاره الشاعر من قصة يوسف عليه السلام، وما شُهر به من جمال، وما فعلته النسوة اللاتي قطعن أيديهن:

والسورةِ مفردُهُ
أَنْكَ الحسَنُ حَلَفْتُ بيوسفه
حوراءُ الخلدُ قد ودَّ جمالكَ أو قبساً
وأمردهُ
يدها لو تُبعثُ وتَمَنَّتْ كلُّ مُقَطَّعةٍ
تَشْهَدُهُ

واختتمت بطائفة من الأوصاف الحسية على صورة مقسم بها، أجمل ما فيها المبالغة التي انطوت عليها:

قَسَمَ الياقوتُ قَسماً بثنايا لؤلئها
مُنْضَدُهُ
لو كان يُقَبَّلُ وبخالٍ كاد يُحجُّ له
أسوده
نسباً والرمحُ وقوامٍ يروي الغصنُ له
يُفَنِّدُهُ
وعوادي الهجر تبدده وبخصر أو هن من جَلدي

أحمد عبد الستار الجواري(35):

هذه قصيدة(36) مطبوعة لشاعر مقلٍّ غير معروف، فالجواري عرف باحثاً ووزيراً لا شاعراً، ولكن قصيدته تعطي انطباعاً إيجابياً كونَّته طريقة تناول الفكرة، والقوالب التي صُبَّتْ بها، والتراكيب اللغوية المميَّزة التي أبرزتها:

ونأى عن ذي كَلَفٍ الليل تطاولَ أسودُهُ
غَدُهُ

مَنْ لَوْلِهَانَ مَنِ الْمَشْتَاقُ يُعَلِّهُ
يُهدِّده؟

وفي المقطع الثالث من القصيدة قَسَمَ تعدَّد فيه المُقَسِّمَ به والمُقَسِّمَ عليه: فالمقسم به الطَّرْفَ والنَّعْرَ والسَّنَا والطيف، والمقسم عليه الهوى والتجلُّد حذر العذول، وخوف جفاء المحبوب، واللوحة الشعرية رسمتها هذه المفردات باقتدار بخطوط وألوان زاهية:

أَتَى وَجَّهَتْ وَأرْصُدُهُ أَقْسَمْتُ بِطَرْفِكَ أَرْقُبُهُ
وَيَحَاكِي الدَّرَّ مَنْضُدُهُ وَبِثَغْرِكَ تَعْبِقُ بِسَمْتِهِ
وَيَقَرُّ بِعَيْنِي وَبِطَيْفِكَ يَطْرُقُنِي سَحْرًا
مَشْهَدُهُ

وَيَمَرُّ لِقَلْبِي وَأَخَافُ جَفَاكَ يَبْرَحُ بِي
مورده

بشارة الخوري(37):

مطلع قصيدته(38):

والليل بِشَعْرِكَ النجم بِثَغْرِكَ أَرْصُدُهُ
أَعْبُدُهُ

والشاعر يوحي لقارئه منذ المطلع بأنه ينحو نحو الوصف الحسي الذي يجيده وتطفح به أشعاره:

ولعينك لا أتصيِّدُهُ والظبي لجيدكِ أعلِّفُهُ

وها هنا معنى لطيف، يرى فيه أن تورّد خديها مستمد من دمه المسفوح

المستباح:

بدمي واللحظُ يُوَيِّدُهُ مولاتي خدكُ معترفٌ
إنْ أُنْ اهْتَزَّ مهنَّدُهُ فعلام ولي حقُّ بدمي

وفي أحد أبيات قصيدته ينظر إلى بيت شوقي في معارضته:

قد ضيِّعَها سَلِمْتُ مولاي وروحي في يده
يُدُّهُ!

فيقول:

قَد ضِيَعَهُ قَطَعْتَ يَدَهُ مَضْنَاكَ وَوَصَّكَ فِي يَدِهِ
!

فانظر أي الفريقين أحق بسلامة اليد أو بقطعها !!

جميل صدقي الزهاوي(39):

هذه القصيدة من أطول قصائد المعارضة، وأوشكت أن تقترب من قصيدة
الحصري من حيث عدد أبياتها ومطلعها(40):

أَتَقَرُّ بِهِ أَمْ لِي عِنْدَكَ حَقٌّ أَتَشُدُّهُ
تَجَحَّدُهُ

تدور مطالع القصيدة (الأبيات 1-18) حول العشق والمعاناة، والوقوف على باب
المحبوب وبتة الشكوى واستجداء حبه وشوقه:

أَتَقَرِّبُهُ أَمْ تُبْعِدُهُ؟ بِالْبَابِ مُحِبُّكَ مَنْتَظِرٌ

ويستمر "أخو الشغف" في بغداد بيت أشواقه ويتمنى لقاؤه:

مَا بَالِكَ لَا تَتَفَقَّدُهُ؟ لَكَ فِي بَغْدَادِ أَخُو شَغْفٍ
إِلَّا وَخِيَالِكَ يُسَعِدُهُ صَبٌّ بِفِرَاقِكَ مَا يَشْقَى
طَيْفٌ وَاللَّيْلَةُ مَوْعِدُهُ يَأْتِيهِ مِنْكَ إِذَا أُغْفَى

وفي المقطع الثاني (19-30) فهو ينعى شبابه ولا يتقبل مثيبيه قبولاً حسناً، وهو

في هذا الحال تتطارحه الهموم وتتقاذفه الآمال:

مَنْ فَارَقَ رَأْسِي أَسْوَدُهُ ابْيَضَّتْ عَيْنِي مِنْ حَزَنِ
فَبِيَاضٍ مَا إِنْ أَحْمَدُهُ أَمَا شَيْبِي وَقَدْ اسْتَوْلَى

سلمت يده، قطعت يده، تبت يده، عبارات يكررها المعارضون!

أما المقطع الثالث (31-45) فهو يجمع فيه ولا يبوح بمكنون نفسه، ويرى أن

شعره سيلهب الشعور ويثير المشاعر:

هَلْ فِي بَلَدِي مَنْ فِي قَلْبِي جَرْحٌ يُوَلِّمُنِي
يَضْمِدُهُ

حَقٌّ قَدْ ضَاعَ لِي فِي بَغْدَادِ وَنَهَضْتُهَا

وَأُنشِدُهُ

وفي المقطع التالي (46-64) نظرات في الإنسان والكون والحياة، يتطرق فيها إلى مبدأ الجبر والاختيار، وأن الإنسان يخلِّده عمله، والأيام تحركه، والموت يهدِّده:

حرًّا فيما يتعمَّده ليس الإنسان وإن ماري
وتثقِّفه وهي الأيام تحركه
وتؤوِّده

والمقطع الأخير (65-77) كله تعبير عن اليأس والبؤس، واستشراء الداء ولا

شفاء:

وظلام الليل يشدِّده دائي قد أعضل يا نفسي
يا ليل الصبِّ متى غده قد طال الليل فغيَّبني

هكذا فالقصيدة تدور في مجملها حول الشكوى والحرمان، واليأس والقنوط، ويغلِّفها فلسفة طغت على منطوق الشاعر، وغلبت على شاعريته أحياناً.

ولئن عبّر كلُّ من الحصري في قصيدته، والزهاوي في معارضته، عن ألمه ومعاناته، فإن الألم والمعاناة هو ما يلفّ القصيدتين ويؤلف بينهما القاسم المشترك. خير الدين الزركلي(41):

مطلع قصيدته(42):

ما غير وصالك يضمده بفوادي جرح تعهده

والزركلي محبوبه قبلة كل العاشقين، وملهم الشعر للشعراء:

يُدنيك هواه وتبعده يا قبلة كل أخي ولكه
وعنت لجمالك سجدّه الحبُّ هوت لك ركعهُ
يشدو بالشعر ويُنشدّه أوحيتُ الشعرَ له فعدا

والقصيدة في مجملها تدور حول العشق والغرام، وما يعانیه المتيم من ضروب الهجر والصدود، وهي تختتم بأبيات في الوصف الحسي للخذ المورد، والشعر المسود، والقامة المشوقة، والريق المعسول، وبياض اللون وسحر اللواحق:

ما أجمل ما صنعت يده رشاً سبحان مكوته

مسودّ الفرع مجعده
في الأنجم همّت تعبده
محرّم الخدّ مورده
لو أطلق سحر لواحظه
رشيد أيوب(43):

هذا شاعر مهجري كان ينعت بالشاعر الشاكي لكثرة ما وقع في نظمه من شكوى
عنت الدهر، وانعكس ذلك في معارضته بدءاً من مطلعها(44):

والنجم ومثلي يرصده
ومروراً ببعض أبياتها:

ورقاء الدوح تردده
تفنى الأيام ولي نوح

وترتد شكواه في قصيدته هذه إلى ما يعانيه من مكابته العشق ومكاتمته الدمع:

أسمعتُم ما أتكبّده
والدمع كذلك أعهده
يا أهل العشق بربكم
كاتمت الدمع هوئى فوشى
فخان القلب تجلده -
وسقيت القلب حمياً الحب

ويلتقي الشاعر مع شوقي في مقاربة عبادة المحبوب لفرط حبه وشوقه، يقول

شوقي:

باب السلوان وأوصده
فأقول: وأوشك أعبده
ما بال العاذل يفتح لي
ويقول: تكاد تجنّ به

ويقول الرشيد:

وكرّب الكعبة أعبده
يا من أوشكت أحجّ له

فوزي المعلوف(45)

هذا شاعر أبعد النجعة، وارتحل بقارئ قصيدته(46) إلى وحل غاص فيه، وإلى
بلدية تقاعست في إزالته، وتحدث عن ليل أسود لا نور فيه. فهي في وصف الوحل في
ليلة ممطرة، لا يربطها بقصيدة الحصري رابط من معنى، ولا يصلها بها صلة، إلا ما
كان بين القصيدتين من وزن وقافية مشتركة. وغلب عليها ما غلب على شعر المهجريين
من هلهلة النسج، وسهولة الألفاظ واللغة وقربها من العامية المتداولة مع تراكيب مقتبسة
ساذجة:

وحلّ تحتي أتوسّده
ظلمّ حولي مطرٌ فوقى

(يا ليلُ الوحلُ متى غده) وشرعتُ أغني من ولهي

عيسى اسكندر المعلوف(47):

كان الأب أرشد من ابنه! فقصيدته(48) لا وحل فيها ولا ظلام! بل هي "تشطير" لقصيدة الحصري؛ ذلك بأن يأخذ بيت الحصري فيجعل صدره أول الأسطار، ويجعل عجزه رابع الأسطار، وينظم هو الشطرين الثاني والثالث، ويستمر على هذه الصورة في كل الأبيات. وقد اقتصر التشطير على أبيات مقدمة القصيدة الغزلية، فهكذا استهل قصيدته:

فالحرب يُمدُّك أسودُه (يا ليلُ الصبِّ متى غده)
(أقيامُ الساعة موعده) وَعَدُّ بالويل له سِمَةٌ

وهكذا اختتمها:

قرباً أو بعداً أرشده (الحب أعفُ نويه أنا)
(غيري بالباطل يُفسده) مَثلي بالحقِّ يعزُّزه

وما دام قد ألزم نفسه تشطير القصيدة، فبدهي أن تدور معاني قصيدته كلها في فلك المعاني الأصلية، وأن لا تخرج عن إطارها ولا تتسلخ عنها، على ما في ذلك من التكلفة والحشو أحياناً، لضرورة استكمال بناء القصيدة على الشكل الرباعي المطلوب:

لعدوِّ قام (ينضو من مُقلته سيفاً)
يُهدِّده
(وكنَّ نعاساً) وبغنجٍ يسطو في نصلٍ
يُغمده

وانقياد الألفاظ والتراكيب ووقوعها مواقعها أحياناً أخرى:

منكوبِ القلبِ فترقده (ما ضرك لو داويتَ ضني)
(صبُّ) يُدنيك أيجوز بشرعك أن يردى
وتُبَعده

محمود بيرم التونسي(49):

مطلع قصيدته(50)

مصباح الدهر وسيِّده اليوم الأسعد مولده

وهذا المطلع يشي بموضوع القصيدة، وهو مولد النبي محمد ٢ ، وتعداد بعض خصائله وفضائله وما جاء به:

في حين تَمَثَّلَ والعيش تَخَيَّرَ أَحْسَنَهُ
أَرْغَدُهُ
ويرى الحيرانَ ويرى المسكينَ فَيُكْرِمُهُ
فَيُرْشِدُهُ

وأن العقل أساس شريعته، والموؤودة رُحِمَتْ به، والإيمان علا به:

والحق الأبلج مَقْصِدُهُ والعقل أساس شريعته
وحيبت تتعدها يَدُهُ وبه الموؤودة قد رُحِمَتْ
وعلا الإيمان وفرقَدُهُ وانحطَّ الكفرُ وطُغَمَتْهُ

ولئن هَمَّ الذين اتخذوا من الغزل موضوعاً لقصيدهم، أن يسجدوا لمن يحبون، صنيع شوقي ومن شايعه من الشعراء، فلقد اختتم التونسي قصيده بما يلائم موضوعها من السجود لله، وقد انجلت ظلمات الكفر وسطع نور الحق واليقين:

ومضت للخالق تعبدُهُ والناس من الجهل انتبهتْ
إله العرش تَمَجَّدُهُ فاهتز العرش وقد سجدتْ
مسعود سماحة(51):

مطلع قصيدته(52)

عينٌ لمحباً تَعْهَدُهُ مولاي رَقَدَتْ وما رَقَدَتْ

وحملت القصيدة في مطالعها معاني الصدود والمعاناة، والحنين والوجد، والأمل في الغد علَّ يتحقق فيه وعد الحبيب:

منه محبوبٌ يُسْعِدُهُ ما أشقى المغرم لا يدنو
ولكم أبلى وعداً غَدُهُ كم وعداً أَمَلَ في غده
نَفِيٌّ قد فات تجلُّدُهُ والوجدُ يزيد على مُضْنَى

وهو في ختام قصيده يلحق بركب الضالين إذ أوشك على عبادة رب الحسن:

للعزة شَيْدٌ معبده هو ربُّ الحُسْنِ على أُسِّ

ش لَكُنْتُ أَضْلُ وَأَعْبِدُهُ لَوْلَا دِينِي وَإِلَهَ الْعَرَبِ

ويلتقي في هذا بشوقي ورشيد أيوب وأضرابهما من الهائمين في كل واد،
والتصنع ظاهر في الفكرة والأسلوب في مثل قوله:

فإِلامَ الحِظِّ تُسَوِّدُهُ بَيَّضْتَ الشَّعْرَ بِناصيتي
حَتَّمَا بوصولِ تَبْعَدُهُ وإِلامَ تُقَرِّبُ لي حَتْفِي
مظاهر مشتركة:

هذه التجارب الشعرية تضعنا أمام نماذج مثيرة تدور حول العشق والغرام،
وأحوال العاشقين المادية والنفسية، وأوصاف المعشوقين الحسية والمعنوية.
وكأن شعراء المعارضة اتخذوا من المطلع الغزلي للقصيد الأم موضوعاً
لمعارضاتهم، ولم يلتفتوا إلى ما سوى ذلك من القصيدة وموضوعها الرئيسي.
ولعل مجال الإثارة في هذه التجارب المختلفة التي تتناول موضوعاً واحداً، أنها
تتيح للنظر فرصة فريدة في الاطلاع على طرق مختلفة في الأداء وتناول الموضوع.
وطبيعي أن ذلك يقود إلى "وقوع الحافر على الحافر" في كثير من الحالات، سواء في
تشابه الفكرة أو تماثل الأسلوب والتركيب اللغوي.

(أ) فمن امثلة توارد الأفكار واتفاق الخواطر ما تكرر عند بعض الشعراء مما

يعانونه من مقاساة الهوى وتحمل تبعاته:

فهذا نسيب أرسلان عصاه تجلده وأنهك جسده وتهامس عودُه (53):

هل أنت بعطفك مُنْجِدُهُ مَضْنَاكَ عِصَاهُ تَجْلِدُهُ
أَحْنَاءُ الأَضْلَعِ مَرْقَدُهُ مِنْهُوكَ الجِسْمِ بِهِ كَمْدُ
دَنِيفٍ يَتَهَامَسُ عُوْدُهُ إِنْ تَهَجَّرُهُ فِعْزَاؤُكَ فِي

وهذا إسماعيل صبري يحتاج إلى رُقِيَّةِ الصريع، وتعهد الآسي، وفسحة الأمل،

ويد المنقذ (54):

هل من آسٍ يَتَعَدُّهُ هل من راقٍ لَصْرِيعِ هَوَى
يُبْلِي الأَحْشَاءَ تَجْدُدُهُ حَتَّمَا يُسَاوِرُهُ كَمْدُ
إِنْ هَمَّ يَقُومُ وَيُقْعِدُهُ وإِلامَ يَصَارِعُهُ أَمْلُ

ما بات هواك يهدده أدرك بحياتك من رمي
وهذا مسعود سماحة يشكو السهاد والجفاء، والبعاد ووعوداً تبلى (55):
عينٌ لمحِبٍّ تَعَهْدُهُ مولاي رقدت وما رقدت
يُشْرِقِيهِ لِيَنعَمَ حُسْدُهُ وتركت جفاك له حظاً
منه محبوبٌ يُسَعِدُهُ ما أشقى المغرم لا يدنو
ولكم أبلَى وعداً وكم وعداً أمل في غده
غده

وهذه عاتكة الخزرجي تقسم بغير الله، ثم تؤكد القسم به (56)

قسَمَ بالله أوكدُه قسماً بالحب ودولته
مرمى قد عزّ مضمه عينك أصابت من كبدي
لا تقوى اليوم تصعده لم تُبق بها إلا نفساً

وإصابة الكبد بسهام المحبين معنى قديم في الشعر العربي (57):

بها كبداً ليست بذات قروح؟ ولي كبدٍ مقروحة من يبيعي
ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح؟ أبيع ويأبى الناس لا يشترونها

والشاعر القديم يحاول أن يستبدل بكبده العليّة أخرى سليمة، فلا يجد من يرضى

بهذه الصفة، وشاعرتنا تحاول أن تصعد أنفاسها بكبد ألفتها العيون فلا تقوى على ذلك !

(ب) وعبادة المحبوب معنى يتناقله الشعراء، يتلقونه بالسننهم، ويقولونه

بأفواههم، بعلم أو بغير علم، وإن لم يفعل أحدهم هم أن يفعل. فهذا رشيد

أيوب يقول (58):

وكرِبَ الكعبة أعبده يا من أوشكت أحمج له
كاد العواد تعدده رفقا بمعنى (59) هواك فقد

وهذه عاتكة الخزرجي تقول (60):

لجهرت بأني أعبده أهواه ولولا مُبدعه

ومسعود سماحة يقول (61):

ش لكنت أضل وأعبده لولا ديني وإله العر

ومصطفى خريف يقول (62):

دي والأيام تُردِّدهُ سأغنِّي للأيام نشيـ
أني أهواه وأعبده وأعيدُ على حبي خبراً
والحصري في القصيدة الأم كان أكثر ألمعية وذكاء؛ فلم يقع في فتنة عبادة
المحبوب الذي تمثله صنماً، بل اكتفى بأن فُتنَ به فهويته (63):

أهواه ولا أتعبدهُ صنمٌ للفتنة منتصبٌ
(ج) وقد لفت نظرنا توريةً لطيفة في معارضة ولي الدين يكن، في قوله (64):

كلفي إن رثتُ أجدهُ زيدي تيهأ أزددُ كلفاً
(صبري) إن جرُّتُ يؤكده (شوقي) إن بنتُ يضاعفه

وواضح أن التورية يراد بها أحمد شوقي وإسماعيل صبري، وكلاهما معارض

للقصيدة الأم.

(د) أخيراً فمن التراكيب اللغوية التي تكررت في غير قصيدة، ما جاء في

قصيدتي شوقي، ومسعود سماحة (65)، من قول الأول:

قد ضيَّعها سلِّمتُ يدهُ مولاي وروحي في يدهِ
وقول الثاني:

إلأهٌ وملجأٌ مولاي وما لي من أملٍ
أفصدهُ

أو لم يُنعمِ سلِّمتُ يدهُ إن يُنعمِ روحي في يدهِ

النتائج:

نظم الشعراء - قدماء ومحدثين - معارضاتهم، مأخوذتين بخفة وزنها، وتفرداً
قافيتها، وسلاسة موضوعها ولصوقه بالنفوس. واستهوى ذلك المغنِّين، فجرت أبياتها على
ألسنتهم.

ظهر من استعراض قصائد الديوان - مجملة ومفصلة - أن بعضها اتفق مع
القصيدة الأم في الموضوع، وهو الغزل، وأن قليلاً منها خالف عن ذلك.

وتراوحت موضوعات القصائد في الأهمية؛ ففي حين سلك أكثر المعارضين
مسلكاً تبعياً اتبعوا فيه موضوع مقدمة القصيدة الأصلية، وهو الغزل، تناول بعضهم

موضوعاً قيماً وهو مولد النبي ٢ ، وتناول بعضهم موضوعاً تافهاً وهو وصف الوحل في ليلة ممطرة (66).

ووقع كثير من التشابه والتماثل في الأفكار المتناولة في موضوعات الغزل، وهي بطبيعة الحال موضوعات مشتركة لكل قصيدة غزلية. كما أدى ذلك إلى استخدام كثير من الألفاظ والتراكيب اللغوية المشتركة عند عدد من الشعراء، وكثيراً ما كانت التراكيب اللغوية للقصيدة الأم محط التكرار والاستخدام. ولكن بعض الشعراء سلك مسلكاً متفرداً، بإيراد الفكرة مزدانة بالتركيب اللغوي المميز، والصورة الشعرية المقرّبة. وأخيراً ليس من قصيدة من قصائد المعارضة ماثلت في طولها القصيدة الأم التي وقعت في تسعة وتسعين بيتاً، عدا واحدة (67).

المراجع

- الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت 1979.
- بردة البوصيري، قراءة أدبية وفولكلورية، الدكتور محمد رجب النجار، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت 1986.
- تاريخ الأدب العربي، الدكتور عمر فروخ، بيروت 1984.
- فريدة القصر وجريدة العصر، ابن العماد الكاتب الأصفهاني، (قسم الأندلس)، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، القاهرة بلا تاريخ.
- ديوان مجنون ليلي، جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة بلا تاريخ.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت 1979.
- شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السكري، القاهرة 1950.
- الشوقيات، أحمد شوقي، نسخة مصورة، بيروت بلا تاريخ.

الحواشي

- (1) لسان العرب، مادة: عرض.
- (2) المدائح النبوية، ص 226.
- (3) ديوان شوقي، 1/195.
- (4) دراسة د. زكي مبارك: المدائح النبوية، والدكتور محمد النجار: بردة البوصيري.
- (5) صدر عن الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1976، وجمع فيه ناشره القصائد التي عورضت بها قصيدة الحصري القيرواني حتى سنة نشره، وقد تفضل الجيلاني بن الحاج يحيى بإهدائي نسخة منه. وقبل هذه النشرة نُشرت معارضات القصيدة في المجموعات التالية:

- معارضات قصيدة (يا ليل الصب) جمعها عيسى اسكندر المعلوف، مطبعة الهلال، القاهرة، 1921.
- معارضات قصيدة الحصي، جمعها محيي الدين رضا، القاهرة، 1919، والطبعة الثانية 1924.
- يا ليل الصب ومعارضاتها لكبار شعراء العربية، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الرابعة، القاهرة، 1951.
- (6) انظر: ترجمة الحصري القيرواني في الذخيرة 245: 4، ومعجم الأدباء 14:39، ووفيات الأعيان 331: 3، والخريدة (قسم الأندلس 50: 4)، والأعلام 300: 4 وانظر أيضاً: تاريخ الأدب العربي 707: 4 وما بعدها.
- (7) من آثاره النظرية رسائل إخوانية متكلفة عاطلة (أي خالية من الإعجام) ومعجمة (منقوطة الحروف). (ومن آثاره الشعرية: المعشرات وهي مقطعات في الغزل كل منها عشرة أبيات على جميع حروف الهجاء).
- اقتراح القريح واقتراح الجريح: مجموع من الشعر في رثاء ولده عبد الغني، وهي قصائد على حروف الهجاء أيضاً.
- مستحسن الأشعار: قصائد في مدح المعتمد بن عباد.
- متفرقات: منها قصيدة (يا ليل الصب)، انظر: تاريخ الأدب العربي 4:709.
- (8) محمد بن طاهر صاحب مرسية 471 - 451 هـ (ومدحه الحصري سنة 455 هـ).
- (9) ديوان يا ليل الصب ص 17-12.
- (10) طمي البحر: ارتفع ماؤه.
- (11) جميل بن عبد الله بن معمر 82 - هـ (صاحب بئينة).
- (12) الخبب: بحر من بحور الشعر يدور حول تفعيلية واحدة مكررة ثماني مرات (فاعلن)، وسمي بذلك لأنه إذا خُبن أسرع به اللسان في النطق، فأشبهه الخبب في السير، وهو نوع من العدو، وسمي المتدارك لأن الأخفش زاده على البحور الخمسة عشر و "تدارك" به على الخليل. انظر: علم العروض والقافية، ص 170.
- (13) البهرج: الباطل، المغشوش. والعسجد: الذهب.
- (14) ينفقه: يشتري منه كثيراً حتى يروج.
- (15) لم يوردها الديوان كاملة.
- (16) القصيدة 21 لجميل أحمد الكاظمي، ص 50 من الديوان.
- (17) المقطعتان 8، 79 لأحمد بن محمد الأنصاري، ومحمود الناظر، ص 32، 165 من الديوان.
- (18) هم حسين الظريفي والشيخ علي عقل وفخري ناجي الحارس، في القصائد 24، 53، 57، ص 64، 117، 125 من الديوان.
- (19) هما عيسى اسكندر المعلوف ومحمد الشيخ علي البازي في القصيدتين 56، 70، ص 122، 150 من الديوان.
- (20) هو محمد أسعد ولاية في القصيدة 67، ص 145 من الديوان.

- (21) هم الطاهر القصار، ومحمد مهدي البصير، ومهدي الأعرجي، والقصائد على التوالي 41-42، 74-75، 85-86، ص 94-97، 158-159، 179-177 في الديوان.
- (22) هما القصيدتان 75، 86 وكل منهما ستة أبيات، وهما في الديوان ص 159، 179.
- (23) القصيدة 46 ص 106 من الديوان.
- (24) القصيدة 79 ص 165 من الديوان.
- (25) وهي القصائد 1، 4، 34، 45، 46، 53، 54، 57، 60، 65، 83، 84 على صفحات الديوان 18، 22، 83، 102، 106، 117، 118، 125، 130، 140، 171، 173.
- (26) القصائد 42، 76، 89، ص 94، 160، 183 من الديوان.
- (27) القصائد 8، 69، 73، ص 32، 147، 156 من الديوان.
- (28) القصائد 74، 75، 86، 3، 26، ص 158، 159، 179، 21، 68 من الديوان.
- (29) القصيدتان 27، 66 ص 70، 142 من الديوان.
- (30) القصائد 18، 59، 32 على الترتيب، ص 46، 128، 79 من الديوان.
- (31) أبو القاسم بن محمد الشابي (1906-1934م) (تخرج من الجامعة الزيتونية ثم من مدرس الحقوق، وصدر له في حياته: الخيال الشعري عند العرب، وبعد وفاته نُشر ديوانه: أغاني الحياة، وفي شعره نغمة أندلسية).
- (32) القصيدة 1 ص 81 من الديوان، وتقع في ثلاثين بيتاً.
- (33) أحمد شوقي (1868-1932م) (أمير الشعراء، له آثار مطبوعة أبرزها ديوانه : الشوقيات، ومسرحياته الشعرية، وأهمها مسرحية مجنون ليلى).
- (34) القصيدة 2 ص 27 من الديوان، وهي في الشوقيات 2:121، وأبياتها في الأول ثمانية وعشرون، وفي الثاني سبعة وعشرون، وقصيدته هذه مُغناة.
- (35) أحمد عبد الستار الجوارى (- 1924) عراقي، تقلب في وظائف التعليم حتى أصبح وزيراً للتربية سنة 1963.
- (36) القصيدة 6، الديوان ص 29 وهي خمسة عشر بيتاً.
- (37) بشارة عبد الله الخوري (1885 - 1968) أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث، كان يذيل شعره بالأخطل الصغير، له ديوان الهوى والشباب، وشعر الأخطل الصغير.
- (38) القصيدة 17، الديوان ص 45، وأبياتها أربعة عشر بيتاً.
- (39) جميل صدقي الزهاوي (1863 - 1936) عراقي، ينحون نحو الفلاسفة، من طلائع شعراء النهضة، ومن آثاره المطبوعة ديوانه، ورباعيان الخيام.
- (40) القصيدة 22، الديوان ص 57، وهي سبعة وسبعون بيتاً.
- (41) خير الدين الزركلي (1893-1976) شاعر سوري فحل، عرف باحثاً ومؤرخاً أكثر منه شاعراً، أشهر مؤلفاته معجم الأعلام وديوانه الشعري.
- (42) القصيدة 29، الديوان ص 74، وهي في ديوانه، كذلك ص 67، وأبياتها في الأول تسعة عشر بيتاً، وفي الثاني ثمانية عشر.
- (43) رشيد أيوب (1871-1941)، شاعر مهجري من لبنان، استقر في نيويورك ومات فيها.
- (44) القصيدة 31، الديوان ص 78، وهي اثنا عشر بيتاً.

يا ليل الصبّ ومعارضاتها ظاهرة فريدة في الشعر العربي الحديث

(45) فوزي عيسى المعلوف (1899-1930م) (شاعر لبناني مهجري، سافر إلى البرازيل عام 1921 ومات فيها).

(46) القصيدة 59، الديوان ص128، وهي ثمانية عشر بيتاً.

(47) عيسى اسكندر المعلوف (1869-1956م) (مؤرخ وباحث لبناني، وهو والد الشعراء المعالفة الثلاثة فوزي وشفيق ورياض).

(48) القصيدة 56، الديوان ص122، وأبياتها ستة وأربعون بيتاً متضمنة قصيدة الحصري تشطيراً.

(49) محمود بيرم التونسي (1893-1961م) (من أدباء مصر وأصله من تونس، عاش في مصر وتوفي فيها).

(50) القصيدة 76، الديوان ص160، وهي اثنان وعشرون بيتاً.

(51) مسعود سماحة (1882-1946م) (لبناني، هاجر إلى الولايات المتحدة ثلاث مرات، وانخرط في الجيش الأمريكي، ثم اشتغل بالتجارة والصحافة، واستقر في نيويورك وتوفي فيها).

(52) القصيدة 82، الديوان ص170، وأبياتها أربعة عشر بيتاً.

(53) القصيدة 35، الديوان ص85.

(54) القصيدة 10، الديوان ص34.

(55) القصيدة 82، الديوان ص170.

(56) القصيدة 43، الديوان ص98.

(57) الشعر لمجنون ليلي في ديوانه ص77.

(58) القصيدة 31، الديوان ص78.

(59) كذا في الديوان، والبيت منكسر الوزن، ولا يصلح لفظ (معنى (هنا، وقد يُستبدل به لفظ) صريع (لإقامة الوزن).

(60) القصيدة 43، الديوان ص99.

(61) القصيدة 82، الديوان ص170.

(62) القصيدة 84، الديوان ص176.

(63) الديوان ص12.

(64) القصيدة 90، الديوان ص187.

(65) القصيدتان 5، 82، الديوان ص28، 170.

(66) القصيدتان 76، 59 لمحمود بيرم التونسي وفوزي المعلوف، ص160، 128 من الديوان.

(67) هي قصيدة جميل أحمد الكاظمي، وقعت في مئة وستة وعشرين بيتاً، رقم 21 ص50 من الديوان.